


ابداعات عالمية

نصوص

هرمان هيسه

تجوال

ترجمة

طاهر رياض



تجوال

رقم التصنيف : ٨١١
المؤلف ومن هو في حكمه :هرمان هيسّه، ترجمة طاهر رياض
عنوان المصنف : تجوال، ط ٢
الموضوع الرئيسي : ١ـ الآداب
٢ـ الشعر الألماني المترجم
رقم الإيداع : (١٩٩٧/١١/١٧٤٩)
بيانات النشر : عمان: دار أزمنة .
*ـ تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل المكتبة الوطنية

ISBN 9957-09-014-3 (ردمك)

هذه هي الترجمة الكاملة للكتاب
Wandering
by Herman Hesse

□ تجوال: هرمان هيسّه
□ الطبعة الأولى : منارات ، ١٩٩٠
□ الإصدار الثاني: أزمنة® ١٩٩٩

أزمنة للنشر والتوزيع
تلفاكس : ٥٥٢٢٥٤٤
ص.ب : ٩٥٠٢٥٢
عمّان ١١١٩٥ الأردن
شارع وادي صقرة، عمارة الدوحة، ط ٤

لوحة الغلاف : ديفيد قوجي تسانغ
تصميم الغلاف : أزمنة (الياس فركوح)
فرز وسحب الأفلام: الشروق
الطباعة: شركة الشرق الأوسط للطباعة
تاريخ الصدور : كانون الثاني ١٩٩٩

الرسوم الداخلية للمؤلف

ولد هيرمان هيسه عام ١٨٧٧ في كالف، ألمانيا.

ابتدأ حياته العملية كبائع كتب، في الوقت الذي شرع يكتب وينشر فيه قصائده الأولى، حين كان عمره ٢١ عاما. حقق أول نجاح كبير له عندما نشر رواية «بيتر كامنسند» التي عالج فيها مشاكل الشباب والتعليم (١٩٠٤). ثم تتابعت رواياته: «الطفل المعجزة» (١٩٠٥)، جيرترود (١٩١٠)، «كنولب» (١٩١٥)، «دميان» (١٩١٩).

بعد ذلك، وكاحتجاج على التسلط العسكري الالماني في الحرب العالمية الاولى، قرر الاستقرار بشكل دائم في سويسرا، حيث كتب «تجوال» عام ١٩٢٠. تجلت انسانية هيسّه العميقة وبحثه الفلسفي في اعماله كلها، الروائية والشعرية، وعلى الأخص في «سدهارتا» (١٩٢٢) «ذئب البوادي» (١٩٢٧)، «نرسيس وغولدماند» (١٩٣٠) والتي بوأته مكانة فريدة كأحد قادة الفكر في عصره.

وفي عام ١٩٤٣ انجز رائعته «لعبة الكريات الزجاجية» التي مكنته من الفوز بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٤٦.

أمضى هيسه بقية حياته في شبه عزلة في مدينة مونتانيولا السويسرية حتى وافته المنية عام ١٩٦٢، عن عمر يناهز الخامسة والثمانين.

بيت المزرعة

هذا هو المنزل الذي سأقول عنده وداعاً. لن يتسنى لي، لأجل طويل، رؤية منزل مثله. فأنا، كما ترى، أتقدم مجتازاً ممراً من ممرات جبال الألب، مصوباً نحو الشمال، الذي تنتهي عنده العمارة الألمانية، والريف الألماني، واللغة الألمانية.

كم هو ممتع أن يُبْلَغَ حدٌّ كهذا. يغدو الرجل الجوّال رجلاً بدائياً في أكثر من طريقة، وبالطريقة ذاتها التي تجعل من البدوي أكثر بدائية من الفلاح.

ولكن الرغبة في تجاوز كل شيء إلى جانبه الآخر قد توطدت، الامر الذي يجعل مني، وكل من هم على شاكلتي، علامات طريق الى المستقبل. لو كان هناك آخرون كثيرون يشمئزون من الحدود بين البلدان كما أشمئز أنا، لما بقي من أثر للحروب والمعوقات منذ زمن. فما من شيء على الأرض أخسّ وأدعى إلى الغثيان من

الحدود. إنها أشبه بالمدافع، أشبه بالجنرالات: ما دام السلام والمحبة قائمين وعامين فما ثمة من يعيرهم أي انتباه ـ ولكن ما إن تنشب الحروب ويتسيد الخبل، حتى يغدو وجودهم مُلحاً ومقدساً. ولشدّ ما كانــوا يمثلون لنـا الألم والسجن، نحن الجـوالـين، أيامَ الحـربُ مشتعلة. فليأخذهم الشيطان!

ها إني أرسم تخطيطاً للمنـزل في دفـتري، فيـما عينـاي تفـارقان بأسى السقف الألماني، والهيكل الألماني للمنزل، والجملونات، كل ما أحـبـبـت، وكـل ما هو حميـمـي لدي. وأحسّ، مجدداً، بالحب العميق لكل ما في وطني، لأني مضطر الى هجره. غداً سوف أعشق سقوفاً أخرى، وأكواخاً أخرى. ولن أخلّف قلبي ورائي، كما يقولون في رسائل الغرام. لا، بل سأحمله معي إلى الجبال، فأنا بحاجة إليه دائماً. أنا بدوي، ولست فلاحاً.

أنا عابد لكل ما هو قليل الاخلاص، للمتغير، للفنتازي. ليس من همومـي ان أقـف حبي على مكـان واحـد صغـير على هذه الأرض. أو من أن ما نحبه ليس إلا رمزاً. فإذا استحال الحب ولوعاً بشيء واحد، بإخلاص واحد، بفضيلة واحدة، عندئذ ينتابني الارتياب.

طوبى للفلاح! طوبى للرجل الذي يملك هذا المكان، الرجل المخلص الفـاضـل الـذي صنعه! أستطيع ان أحبه، ان أبجله، أن أحسده، فلقد ضيعت نصف حياتي محاولاً ان أعيش حياته. كنت أريد ان أكون ما لم أكنه. كنت أريد أن أصبح شاعراً ورجلاً متوسط

الحـال في الـوقت ذاتـه. كنت أريـد ان أكـون فنـاناً ورجلاً غارقاً في الأوهام، ولكنني أيضاً كنت أريد أن أكون رجلاً طيباً، رجل بيت طيباً. واستمر هذا فترة طويلة من الزمن، إلى أن أدركت ان ليس في وسع المرء ان يكون الاثنين ويحظى بالاثنين، فأنا بدوي ولست فلاحاً، أنا رجل يبحث لا رجل يدخر. ولزمن مديد كنت أؤنب نفسي أمام الآلهة وأمام الشرائع، تلك التي لم تكن بالنسبة لي غير أشباح. ذلكم هو خطأي وكربي واشتراكي الآثم في صنع ألم العالم.

لقد أضفت إلى العالم ذنوباً وكروباً، بما مارسته على نفسي من عنف، وبعـدم جرأتي على المضي قدمـاً نحـو خلاصي. إن طريق الخلاص لا تتجه الى اليمين أو اليسار: إنها تتجه إلى قلبك أنت، هناك فحسب تجد الله، وهناك فحسب تجد السلام.

نسائم الجبال الندية تندفع نحوي، فيما تتأمل خلفي جُزرُ السماء الزرقاء، من عل، البلدانُ الأخرى. تحت تلك السماوات سأحس بالسعـادة أحيـانـاً، وسأحس تحتها بالحنين أحياناً أخرى. إن الرجل الكـامـل الـذي هو أنـا، الجـوّال الخـالص، لا ينبغي له أن يفكـر بالحنين. ولكني أعرف أني لست كاملاً، وأني لا أناضل لكي أغدو كذلك. بي رغبة لتذوق الحنين، كما أتذوق المتعة.

هذه النسائم الهابة على ما أتسلقه، تعبق بأرج الماوراء والنائي، بالفـواصـل المـائيـة واللغات الأجنبية، بالجبال ومطارح الشمال. إنها مترعة بالوعود.

وداعاً يا بيت المزرعة، ويا موطني. أهجرك كما يهجر الشاب أمه: إنه يعرف ان الأوان قد آن لهجرانها، ويعرف كذلك ان ليس بإمكانه هجرانها تماماً، حتى ولو كان يريد ذلك.



مقبرة ريفية

وسط الصلبان المعرّشة باللبلاب،
تنتشر أشعة الشمس والعبير وطنين النحل.

أيها الهانئون، المضجعون تحت ستوركم،
والمستكنوّن إلى قلب الأرض الرؤوم.

أيها الهانئون، يا من عدتم وادعين ومجهولين
لتستريحوا في حضن الأم.

أصغوا ثمة، فمن خلايا النحل ومن الأزهار
يغني لي الشوق اللاهف إلى الحياة.

ومن جذور الأحلام المتشابكة،
يهبّ الوجود الذي طال موته إلى النور،

وخرائب الحياة، المدفونةُ بغموض،
تتحول وتنهض مطالبة بالحياة،

والأم ـ الأرض الملكية
تختلج بمخاض الولادة.

كنز السلام العذب في جدثه الأجوف
يهتز بلطف كما الحلم في الليل.

ليس حلم الموت سوى الدخان الأسخم
حيث تشتعل تحته نيران الحياة.



ممر جبلي

على هذا الطريق الضيق والجريء لا تكف الرياح عن الهبوب. لقد تراجعت الأشجار والآجام دونه، وتركت للحجارة والطحالب وحدها ان تنمو. ما من شيء هنا يسترعي انتباه أحد، وما من شيء يمكن ان يكون ملكاً لأحد، في هذه الأعالي التي يتعذر فيها على المزارع ان يجد القش بَلْهَ الحطب. بيد أن المدى المغري، والتوق المستثار قد وفرا لنا، عبر الصخور والمستنقعات والثلوج المتراكمة، هذا الطريق الضيئل الرائع، الممتد صعداً نحو أودية أخرى، ومنازل اخرى، وأناس آخرين

عند أعلى نقطة من هذا الممر الجبلي أتوقف. فالطريق يهوي منحدراً من كلا الجانبين، والى الأسفل من كلا الجانبين يتدفق الماء، وكل المتجاورات هنا في الأعلى تجد طريقها نزلاً باتجاه عالمين مفترقين. بركة المياه الصغيرة التي تلامس جذائي تسيل صَوبَ

الشمال، حيث سينتهي المطاف بمائها في بحار باردة بعيدة. بينما تسخّ قطرات كتلة الثلج المجاورة لها صوب الجنوب، لتسقط على الشاطىء الليغوري أو الأدرياتيكي، وتمتزج بمياه البحر الذي حدوده أفريقيا. ولكن مياه العالم بجمعاء لا تلبث ان يلتقي بعضها بعضاً. فتجتمع بحار القطب الشمالي بنهر النيل في سرب محلق من الغيوم البليلة. إن هذه الصورة القديمة الحسناء لتضفي القداسة على ساعتي هذه. فكل الطرق لا محالة رادّتنا، نحن الجوّالين، أيضاً إلى مواطننا.

ومع ذلك، فما يزال لنظرتي المتأملة ان تختار، وما يزال الشمال والجنوب ملكاً لعينيّ. فبأقل من خمسين خطوة وحسب أبلغ الجنوب. ما أشد غموض عبيره المنبعث من أوديته الزرقاء! كم من القلوب يخفق فيه! إن الفة بحيراته وحدائقه، وعبق نبيذه ولوزه، لتتصاعد حاملة إليّ رسالة شوق قدسية، ورغبة بالحج إلى روما.

بعد أن ولى الشباب، ها تصخب ذاكسرتي برنين كرنين الأجراس، مستعيدة من أودية موغلة في القصاء: متعة رحلتي الأولى إلى الجنوب، الهبوب النشوان للنسائم السخية، الجنائن المحيطة بالبحيرات الزرقاء، والاصغاء مساء لصوت موطني البعيد، عبر الأضواء المتلاشية للجبال الثلجية. هناك كانت صلاتي الاولى في حضرة الأماكن المقدسة للعالم القديم! وأيضاً، وكما في حلم، إطلالتي الأولى على البحر المزبد فيما وراء الصخور البنيّة!

انقضت تلك البهجة الآن، وانطفأ ذلك التوق، توق أن أظهر لمن أحبهم سعادتي الغامرة بتلك الأمداء الخلابة. لقد هجر الربيع قلبي. وحل الصيف محله. الترحيب الذي تستقبلني به الأماكن الغريبة غير ما اعتدته من ترحيب، ولا يخلّف في صدري غير صدى خافت. وما أراني ألقي بقبعتي في الهواء. وما أراني أغني.

ولكني أبتسم، وليس بفمي وحسب. بل بروحي، بعيني، بجماع جلدي أبتسم، وأمنح هذه الأرياف، وهذه النسمات العطرة المندفعة نحوي، حواسَّ جديدة ما كنت أمتلكها قبلاً، حواسَّ أكثر رقة، وأشد صمتاً، وأحد مضاء، وأوسع خبرة، وأعمق امتناناً.

كل شيء هو لي الآن أكثر من أي وقت مضى، ويحدثني بغنى أكبر وبمشات من اللغات. ولم يعد حنيني يرسم بألوانه الحلمية المسافات المحتجبة، فعيناي لا تطمحان بَعْدُ إلا إلى ما هو موجود، ذلك أنهما قد تعلمتا كيف تبصران. ولقد غدا العالم أجمل من أي عهد سابق.

لقد غدا العالم أجمل. ورغم أني وحيد فإنني لا أشكو من هذه الوحدة. لا أريد للحياة ان تكون غير ما هي عليه. وإني لعلى استعداد لأن أتركني أُخبَز تحت الشمس، حتى أقضي. بي لهف عارم لأن أنضج. وعلى أهبة أنا للموت، وللولادة من جديد. لقد غدا العالم أجمل.

السير ليلاً

أتمشى في وقت متأخر وسط الغبار.
ظلال الجدران تتهاوى على الأرض،
ومن فرُجات الكروم يتراءى لي ضوء القمر
منسكباً على الجدول والطريق.

الأغنيات التي كنت غنيتُها مرة
تعتادني بنعومة من جديد،
وتعترض طريقي طيوف رحلاتي
التي لا تحصى.

تتصادى في خطواتي
ريح السنين وثلجُها وحرُّها،
الليالي الصيفيةُ والبروقُ الزرقاء،

العواصف وتعبُ الترحالْ.

مسفوعاً ومترعاً بفيض هذا العالم
أحسُّني منجذباً
مرة أخرى
حتى يغيب دربي في الظلامْ.



بلــدة صغيــرة

إنها أولى المدن الصغيرة على الجانب الجنوبي للجبال. هنا تبدأ حياة الجوّال الحقيقية، الحياة التي أحب، التجوال دون أية وجهة محددة، بيسر وبسهولة تحت أشعة الشمس، حياة متشرد كامل الحرية. إني لشديد النزوع لأن أمضي الحياة بحقيبة على الظهر، تاركاً بنطالي يتهرأ كما يشاء.

بينما كنت أحتسي كأساً من النبيذ في الحديقة، تذكرت فجأة أمراً كان قد قاله لي فير وشيو بوسوني: «أنت تبدو ريفياً»، هذا ما قاله لي ذلك الرجل العزيز بشيء من السخرية في آخر مرة رأيته فيها - في زيوريخ، منذ زمن ليس بالبعيد. كان أندريه قد قدم كونشيرتو لماهلر، وقد جلسنا معاً في مطعمنا المعتاد، وكنت سعيداً لمرأى وجه بوسوني الشبحي الشاحب الوضاء، وليقظة ذلك العدو المادي الأكثر إبهاراً، والذي ما نزال نحمله طيّ نفوسنا. لماذا تعود إليّ هذه

الذكرى؟

أنا أدري! ليس بوسوني هو الذي أذكر، أو زيوريخ، أو ماهلر، فما هذه كلها سوى خدع مألوفة تحتال بها الذاكرة حينما تصل إلى ما يسبب لها الضيق، عندئذ تندفع الصور المصونة بنعومة بالغة إلى مقدمة العقل. أنا الآن أدري! ففي ذلك المطعم كان يجلس معنا فتاة شقراء، تتألق، ويتورد خداها، ولم أتوجه إليها بكلمة واحدة. أيها المَلَك! كل ما كان عليّ أن أفعله هو أن أنظر إليك، وكان ذلك مؤلماً، وكان كل متعتي، آه كم أحببتك طوال تلك الساعة! ومرة اخرى كنتُ في الثامنة عشرة.

وفجأة بدا كل شيء واضحاً أيتها الشقراء الرائعة الجمال الهانئة! حتى انني لا اذكر إسمك. لساعة كاملة كنت واقعاً في حبك، وفي هذا اليوم، في الشارع المشمس لهذه المدينة الجبلية، أحبك مرة أخرى لساعة كاملة، لا يهم من يكون ذلك الذي أحبك، فإنه لن يبلغ مبلغ حبي لك، ما من رجل قط سلّمك حق السيطرة عليه، سيطرة تامة، كما فعلت أنا. ولكنني رجل محكوم بعدم الوفاء. إنني أنتمي إلى تلك الأصوات الريحية، التي لا تحب النساء، التي تحب الحب فحسب.

على هذه الشاكلة خُلق كل واحد منا نحن الجوالين. إن أحسن ما في تجولنا وتشردنا هو الحب والشبق. إن نصف رومانسية التجول

على الأقل، هو نوع من التوقان للمغامرة ليس إلا. ولكن النصف الآخر هو توقان من نوع آخر - إنه الاندفاع اللاواعي نحو تبديل وتبديد المشتهى. نحن الجوالين شديدو المكر - فنحن ننمي تلك المشاعر التي يستحيل تحققها، ونبعثر الحب، المفترض أن يتوجه للمرأة، باستخفاف بين المدن الصغيرة والجبال، بين البحيرات والأودية بين الأطفال على قارعة الطريق، والشحاذين على الجسر، والأبقار في مراعيها، بين العصافير والفراشات. إننا نفصل بين الحب وموضوعه، إذ الحب وحده يكفينا، وبالطريقة نفسها، فنحن الجوالين لا نتقصى غاية أبعد من السعادة التي يمنحنا إياها التجول، مجرد التجول.

أيتها المرأة الشابة، يا ذات الوجه النضير، لا أرغب بمعرفة اسمك وما في نيتي إخصاب حبك والتعلق به، ولكنها صحوة، إنها بداية. لقد منحت هذا الحب للورود النابتة على طول الطريق، لتألق شعاع الشمس في كأس خمري، للبصل الأحمر عند برج الكنيسة. أنت التي جعلت بإمكاني أن أحب العالم.

إيه، يا للشرثرة العقيمة، حلمت ليلة أمس، وأنا في كوخي الجبلي، بالفتاة الشقراء. لقد كنت مهووساً بحبها، وعلى أهبة للتخلي عن كل ما تبقى لي من الحياة بها في ذلك متع التجول، فقط من أجل ان تكون بجانبي. لقد قطعت سحابة النهار متفكراً بها. من أجلها شربت نبيذي وتناولت خبزي. من أجلها رسمت في

دفتري الصغير تخطيطات للمدينة الصغيرة وبرج الكنيسة. من أجلها شكرت الله - أنها لا تزال على قيد الحياة، وما تزال الفرصة متاحة لي لرؤيتها. من أجلها، سوف أكتب أغنية، ثم أثمل بهذا النبيذ الأحمر.

وإني لعلى يقين: ان أول سلام قلبيّ أحظى به في هذا الجنوب الرائق ليعود إلى حنيني لتلك المرأة الشقراء الوضاءة في الجانب الآخر من الجبال. ما كان أجمل ثغرها العذب! وكم هي جميلة، سخيفة، ساحرة - هذه الحياة البائسة.

التــائه

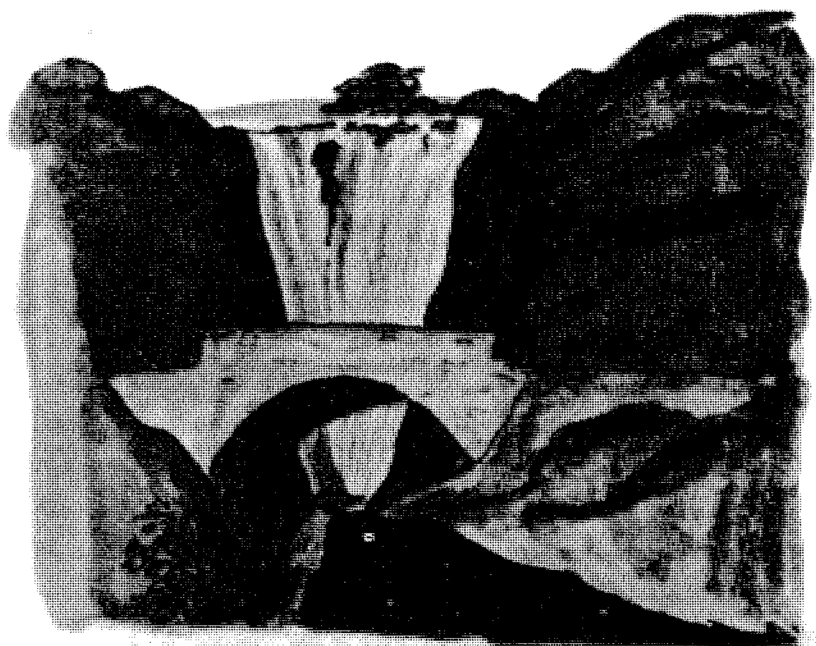
كالسائر في نومه، أتلمس طريقي خلال الادغال والمضائق،
محاطاً بهالة سحرية تتوهج بشكل خيالي،
غير عابىء إن كنت معظماً أو لعيناً،
ملبياً بإخلاص ندائي الداخلي.

كم من مرة أرّقني الواقع الذي يعيشه الآخرون
وكم دعاني إليه !
هناك وقفت متحرراً من الوهم وخائفاً
ولم ألبث أن انسللت مبتعداً من جديد.

آه يا بيتي الدافىء الذي سرقوني منه وأبعدوني،
آه، يا حلم الحب الذي أقلقوه فيّ.
إني لأفر عائداً إليك عبر آلاف المضائق والمسارب

كما يعود الماء إلى البحر.

تقودني الينابيع سراً بألحانها،
وتنفش طيور الأحلام ريشها الفاتن؛
وتخرج طفولتي بأجراسها كما لو للمرة الأولى،
على شواطىء الضوء الذهبية وأغنية النحل الحلوة،
هناك أجدني من جديد أنشج قرب الأم.



الجســـر

تمر دربي هذه بالجســـر المعلق فوق الجـــدول الجبـــلي، بمحـاذاة الشلال. لقد عبرت مرة هذا الجدول ـ مرات عديدة في الحقيقة، لكن إحـــداهـــا كانت شديـــدة التميـز. لم تكن الحـرب قد وضعت أوزارهـا بعـد، وكـانت إجـازتي قد انقضت لتـوّهـا، وعليّ أن أتابع المســـير من جديـد، أن أهـــرع قاطعـــاً طرقـــات البلدة والسكـك الحـــديـــديـــة، عائـــداً الى واجبـاتي في الـوقت المحـدد. الحـرب والمسؤوليـات، أذ ونـات المغـادرة والعـودة، تلك الشهادات الحمراء والشهـادات الخضـراء، اصحـاب السعـادة، الوزراء، الجنرالات، المكاتب البيروقراطية ـ كم كان عالماً وهمياً وغير معقول، ورغم ذلك كان يستمر بالحياة، وكان لديه من القوة ما يكفي لتسميم الأرض، كان يملك أبواقاً بإمكانها استدعائي للمثول على الفور انا الصغير، الجـوال، الـرسـام بالألوان المائية، عاصفةً بي خارج مأواي. المروج الخضراء هاجعة هناك، وكذلك الكروم، وتحت الجسر ـ كان ذلك

مساء ـ نشج الجدول في الظلام، وارتعشت القصبات الرطبة، فيما انبسطت سماء المساء الآخذة بالتقلص، وراحت الورود تنمو باردة؛ وعما قليل يبدأ وقت اليراعات. ما من حجر هنا لم أعشقه. ما من قطرة من مياه الشلال لم أمحضها امتناني، أو لم تكن قد تقطرت هابطة من حجرات الله السرّية. لكن هذا كله ما كان أمراً ذا بال، فالحب الـذي أكنـه للأجمات المنـداة المتـدليـة كان ضرباً من العاطفية، أما الواقع فكان شيئاً آخر، إنه الحرب، وقد دوّى نفيرها من خلال أفواه الجنـرالات، وأفـواه الـرقبـاء العسكـريين، ويتوجب عليّ ان أهرع، وعلى الآلاف المنتشرين في كل أوديـة العـالم ان يهرعـوا معي، فلقد بزغت شمس الزمن العظيم. وعلينا نحن البهائم المساكين ان نمتثل راكضين بأسرع ما نستطيع، قبل ان يسبقنا الزمن العظيم. وطوال رحلة عودتي، لم يكف الجدول المنساب تحت الجسر عن الغناء في داخلي، مرجعاً اصداء الارهاق الخفيف الذي انتاب السماء المسائية، وكان الجنون والبؤس يلفان كل شيء حوالي.

ها نحن نسير ثانية، كل الى جانب جدوله الخاص، وعلى طول شارعـه المألـوف، ننظـر إلى العـالم القديم ذاته، إلى آجامه ومروجه المنحدرة، بعيون مسكونة بالصمت والقلق. نفكر بأصدقائنا الذين ووروا التراب، وكل ما نعرفه هو ان ذلك كان لابد ان يحدث، وان علينا ان نتقبله، محتملين أحزاننا الذاتية.

ولكن المـاء الـرائـع، بلونيـه الأبيض والأزرق، يتـابـع تدفقه من

الجبال البنية، مغنياً الأغنية القديمة، والأجمات ما تزال تحتشد بالشحارير. الأبواق تكفّ عن الزعيق علينا من بعيد، ويتألف الزمن العظيم مرة اخرى، من الأيام والليالي المفعمة بالسحر، بالأصباح والأماسي، بساعات الظهيرة وساعات الشفق، ويعاود قلب العالم العليل خفقانه. ان نستلقي على المروج النضرة، ضاغطين آذاننا إلى الأرض، أو نحنني من أعلى الجسر إلى الماء، أو نطيل التحديق والتأمل في السماء المتألقة، تلك هي طريقتنا في الاصغاء إلى ذلك القلب الكبير الصافي، وما هو إلا قلب الأم، وما نحن الا أطفالها.

وحين أفكر اليوم في ذلك المساء الذي انفصلت فيه عن هذا المكان، أسمع اصداء الأسى تأتي من مكان ناء الى حيث الزرقة والأرج يجهلان كل ما يمت إلى المعارك والصيحات بصلة.

وسيأتي يوم لن يبقى فيه شيء من كل تلك الأشياء التي شوهت حياتي وملأتها بالحزن، واترعتني بالكرب مراراً. سيأتي يوم، بعد أن يصل الانهاك حده، يعم فيه السلام، وتجمعني الأرض الرؤوم بموطني. لن تكون تلك خاتمة للأشياء، بل طريقة للولادة المتجددة، للاغتسال والهجوع حيث القديم والذاوي يغرقان، وحيث الفتيّ والجديد يشرعان بالتنفس.

عندئذ، وبأفكار مختلفة، سوف أتمشى على طرقات كهذه، مصغياً إلى الجداول، مسترقاً السمع إلى ما تقول السماء في المساء، مراراً وتكراراً.

عالــم مجيــد

إني لأحس بها المرة تلو الأخرى،
ما هَمَّ شيخاً كنت أم يافعاً:
سلسلة الجبال في الليل،
المرأة الصامتة على الشرفة،
الشوارع البيضاء تحت أشعة القمر وهي تنعطف مبتعدة برقة
إن ذلك ليمزق قلبي شوقاً للخروج من جسدي.

أيها العالم المحترق، أيتها المرأة البيضاء على الشرفة،
أيها الكلب النابح في الوادي، والقطار المسافر الى البعيد،
أي كاذبين كنتم! وما كان أمرّ خداعكم لي!
ومع ذلك انتهيتم لتكونوا أحلى أحلامي وأوهامي.

غير مرة جربت الدرب الراعب «للواقع»،

بأشيائه المحدودة بالمهنة والقانون والزي والمورد المالي،
ولكنني، مستعيداً بصيرتي وحريتي، فررت وحيداً
إلى الجانب الآخر، حيث الأحلام والحماقة المباركة.

أيتها الريح اللافحة خلل الأشجار ليلاً، أيتها المرأة الغجرية السمراء،
أيها العالم الطافح بالمتاقات الغبية وبأنفاس الشعراء،
أيها العالم العظيم الذي لا أنفك أعود إليه،
حيث حرارة آلائك تومىء لي، حيث صوتك يدعوني!



الأبرشية

إنه لمما يجعلني أحس بالوحدة والحنين أن أتجول ماراً بهذا المنزل الجميل - تتملكني رغبة بالسكينة والسلام، وبحياة عادية؛ أتوق إلى أسرّة مريحة، ومقعد في الحديقة، ورائحة تصدر عن مطبخ لطيف، وأيضاً إلى غرفة مكتب، وتبغ، وكتب عتيقة. لكم ازدريت اللاهوت، في يفاعتي، وسخرت منه! أما اليوم فأرى انه النظام والجمال والسحر، وان لا علاقة له بسخافات الأمتار والمقاييس، ولا يعير اهتماماً لتاريخ العالم الضيق، لاطلاق النار المستمر فيه، وبلاغات الانتصار، والخيانات؛ يتعامل اللاهوت بدماثة مع الجوّاني، مع الأشياء الأثيرة، التسامي والخلاص، الملائكة والأسرار المقدسة.

كم سيكون رائعاً لرجل مثلي ان يجعل مقامه هنا، أن يكون قساً! خصوصاً رجل مثلي! ألن أكون الصنف المناسب تماماً من الرجال -

متمشياً روحة وجيئة بثوبي الأسود النظيف، مولياً عنايتي بكياسة، وحتى بروحانية ورمزية، لعرائش الكمثرى في الحديقة، مواسياً المحتضرين في القرى، قارئاً الكتب اللاتينية القديمة، مصدراً الأوامر بلطف الى الطاهي، وفي أيام الآحاد مجتازاً على مهل الدرب المرصوف باتجاه الكنيسة، وفي ذهني موعظة مؤثرة؟

حين يسوء الطقس، فلسوف أوقد ناراً حامية، وأتكىء آناً بعد آن على أحد المواقد ذوات الآجر الأخضر أو الأزرق، ولسوف اتخذ سمتي احياناً قرب النافذة وأهز رأسي للطقس.

أما حين يصفو الجو، فسأتردد كثيراً على الحديقة، لأقلم الكروم وأحكم ربطها بالعرائش، أو أقف الى نافذة مشرعة مصعداً البصر الى الجبال وهي تتورد وتتوامض منبثقة من لونيها الرمادي والأسود. آه، وسألقي بنظري رامقاً بمحبة كل جوّال يجوز منزلي الهادىء، لسوف أتابعه متعاطفاً معه، متمنياً له الخير، مباركاً خطواته لأنه اختار سبيلاً أفضل من سبيلي، لأنه في الحقيقة والواقع ضيف وسائح على الأرض، بدلاً من اتخاذ دور السيد والمعلم كما فعلت أنا.

ربما سأكون من هذا النوع من القساوسة. ولكن من المحتمل ان اكون نوعاً مختلفاً، أقتل الليالي في مكتبي الكئيب مصطحباً زجاجة من الخمر الثقيلة، متشاجراً مع آلاف الشياطين، او أستيقظ من

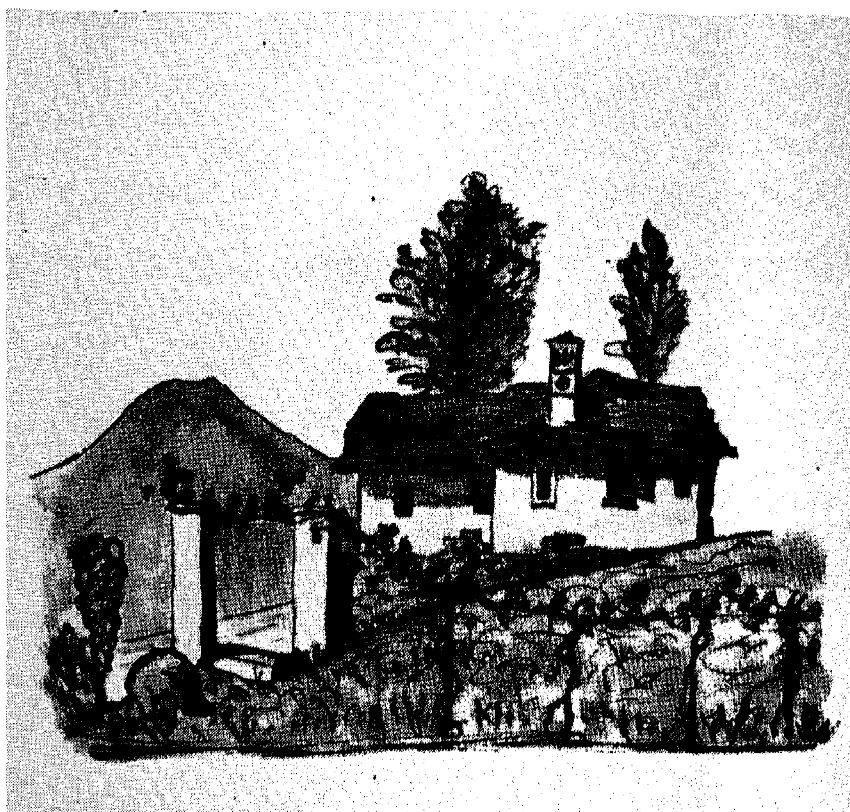
النوم فزعاً، على كوابيس مروعة سبّبها ضميري، يُثقلني احساس بالذنب لارتكابي خطايا غامضة مع امرأة شابة كانت قد قصدتني للاعتراف. أو أني سأقفل بوابة حديقتي الخضراء وأدع القندلفت هناك مواصلاً قرع الجرس، ولن أولي اي اكتراث لمركزي في الكنيسة، أو لمكانتي في العالم، سوف أضطجع على أريكة عريضة وأدخن، وأكون كسولاً فحسب. أكسل من أن أخلع ملابسي في الليل، وأكسل من أن أنهض من فراشي في الصباح.

ولجعل الأمر أكثر وضوحاً، فاني لن اكون حقاً قساً في هذا المنزل. لسوف يكون لي المزاج المتقلب ذاته الذي لجوّال مسالم، لسوف أكون الرجل نفسه الذي هو أنا الآن. لن اكون في الواقع قساً ابداً، محتمل أن أكون بشكل سطحي لاهوتياً همجياً، ذواقة خمور في بعض الأحيان، وفي أحيان اخرى مجرد كسول بصورة فاحشة، محاطاً بزجاجات النبيذ، مستغرقاً في التفكير بفتيات يصلحن للزواج؛ أحياناً شاعراً، أو ممثلاً إيمائياً، واحياناً رجلاً يحن ويتلهف، طاوياً على الألم ينخر في قلبه المعدم.

وهكذا يتساوى لدي ان أحدق إلى البوابة الخضراء، وإلى العرائش، إلى الأبرشية الفاتنة من داخلها أو خارجها، ان أطيل النظر بتشوّف من الشارع نحو النافذة حيث يقطن الرجل الروحاني، أو أن أحدر بصري من النافذة رامقاً بحسد الجوّالين. ما الذي يمكن ان يعنيه للحياة كوني قساً، أو كوني متشرداً على الطرقات؟

سيان كل هذا عندي ـ عدا بضعة أمور عميقة : إني لأستشعر الحياة ترتعش في كياني، على لساني، وحتى أخمص قدمي، في رغباتي أو في عذاباتي، أريد لروحي ان تكون روحاً دائمة الترحال، قادرة على العودة في مئات الأشكال، أريد ان أحلم بنفسي قساً وجوّالاً، طاهية وقاتلاً، طفلاً وحيواناً، وأكثر من أي شيء آخر طائراً وشجرة؛ ذلك أمر بالغ الضرورة، وإني لأريده، واحتاج اليه لأ تمكن من مواصلة العيش، وفي الآن الذي يعتريني فيه الشعور بضياع هذه الامكانات، وبأني مقبوض فيها يدعى الواقع، فإني آنئذ أفضّل الموت.

استندت إلى الفسقية ورحت أرسم تخطيطاً للأبرشية ببوابتها الخضراء، التي مسّت قلبي اكثر من غيرها، وبرج الكنيسة في الخلفية. محتمل انني قد جعلت البوابة أشد اخضراراً مما هي عليه في الواقع، ولعلي زدت في طول البرج قليلاً. ولكن لابأس. فكل ما يهم هو ان هذا البناء، ولمدة ربع ساعة كان بيتي. سأتفكر ذات يوم بهذا الأبرشية ويتنامى بي الحنين إليها، على الرغم من أني ما فعلت سوى الوقوف خارجها وتأملها، وبرغم معرفتي بخلوها من أي قاطن كان ـ لسوف يترعني الحنين إليها كما لو أنها كانت بيتي حقاً، أحد الأماكن التي أمضيت فيها شطراً من طفولتي سعيداً. لأنني هنا، ولربع ساعة من الزمن كنت طفلاً، وكنت سعيداً.



المزرعـــة

كلما نظــرت الى هذا الـريف السعيـد الهـانىء، على السفـوح الجنوبية للألب، شعرت وكأنني عائد من منفى، وأنني على الجانب الصحيـح من الجبـال من جديـد. هنـا تشـرق الشمس بألفة أكثر، وتتورد الجبال بحمرة أعمق؛ هنا الكستناء والأعناب، اللوز والتين، والبشـــر الطيبـون، المتحضـرون، الكـرمـاء على الـرغم من كونهم فقـراء. وكـل ما يتحلون به من انـماط معيشتهم يتكشف عن روعـة فائقة، ودقة إحكام، ويوحي بالألفة والبساطة البليغتين، كما لو كان من صنـع الطبيعـة ذاتهـا. البيـوت، الجدران، الأدراج الموصلة إلى الكروم، الممرات، الغراس الحديثة، المساطب ـ ليست بالجديدة ولا القـــديمـــة، بل تبـدو كما لو أنهـا لم تُستنبـط من الطبيعـة وتحـاكيهـا فحسب، ولكن ببساطة، كما لو أنها بُعثت من الطبيعة، كما تُبعث الحقـول، والأشجـار والطحـالب. أسـوار الكـروم، البيوت وسقوف البيوت، كلها مصنوعة من الحجر الأسمر ذاته، ويشبه بعضها

بعضاً، كأنها اخوات. مامن شيء غريب هنا أو عدواني، او يتسم بالعنف، فكل الأشياء تبدو دافئة، هادئة، ومترعة بالود.

إختر أي مكان تشاء لجلوسك، على جدار، او حجر، او جذع شجرة، على العشب او الأرض، اينما تكون فستجد نفسك محاطاً باللوحات والقصائد، وسيرجّع العالم اصداء الجمال والهناءة من حولك.

هذه هي المزرعة التي يشيد فيها فقراء المزارعين مساكنهم، إنهم لا يملكون أبقاراً، بل بعض الخنازير والدجاج فحسب؛ ويزرعون العنب والقمح والفواكه والخضروات. المساكن هنا تبنى برمتها من الحجر، حتى الأرضيات والأدراج؛ أما الدرج المنحوت نحتاً فيؤدي، عبر عمودين حجريين، إلى الفناء الداخلي. وأنّى وجهت بصرك طالعك وميض البحيرة الأزرق من خلال النباتات والحجارة.

يبدو ان الأفكار والأحزان قد تخلفت على الطرف الآخر من الجبال. فبين البشر المعذبين والممارسات البغيضة، على المرء ان يفكر ويحزن كثيراً! وإنه لمن أصعب الأمور، هناك، وأشدها أهمية، ان تجد سبباً واحداً للبقاء على قيد الحياة. بأية طريقة اذن ينبغي على المرء ان يواصل العيش؟ اذ من شأن الشقاء المطبق ان يجعل الانسان عميق التفكير ـ ولكن هنا لا توجد اية مشكلات، فالوجود المحض لا يحتاج إلى اي مسوّغ، ويغدو التفكير مجرد لعبة، ويكتشف المرء

ان: العـــالم جميـل، والحيـاة قصـيرة. وتبقى بعض الاشـواق تنتظـر إشباعها، كم أود لو أملك زوجاً آخر من العيون، ورئة إضافية. لقد مططت ساقي على العشب، ويا ليتهما كانتا أكثر طولا.

أتمنى لو أنني كنت عملاقاً، ليتسنى لي ان أوسد رأسي عند ثلوج أحـد جبـال الألب، ممدداً جسـدي بين قطعـان المـاعز، بينا أصابع قدمي تعبث بمياه البحيرة العميقة. هناك سوف استلقي ولن اقوم ثانية ابداً، تنمو الشجيرات بين أصابعي، وتنبت زهور الألب البرية في شعري؛ سوف تغدو ركبتاي تلالاً ألبية، وتعرّش على جسدي الكروم والبيوت والكنائس. وهكذا، لعشرة آلاف سنة سوف أتمدد هنـاك، محدقـاً في السماوات، محدقـاً في البحيرة. حين أعطس تهب عاصفـة رعـديـة. حين أتنفس يذوب الثلج وتـتراقص الشـلالات. وحين أموت، فإن العالم بأسره يموت. عندئذ أرحل قاطعاً محيطات العالم، لأعود بشمس جديدة.

أين سأبيت الليلة؟ من يبالي! ما الذي يجري في العالم؟ هل تم اكتشاف آلهة جديدة، شرائع جديدة، حريّات جديدة؟ من يبالي! ولكن في الأعالي هنا، تزهر ورود الربيع، حاملة زغبها الفضيّ على بتلاتها، والريح الطرية الرخاء تغني في الأسفل خلل أشجار الحور، وبين عيني والسماء نحلة ذهبية غامقة، تحوم وتطن - إني بهذا أبالي. هي ذي تصـدح أغنيـة الفـرح، غنيـة الأبدية وهي لتاريخ الوحيد الذي أعترف به للعالم.

مطــر

مطر ناعم، مطر صيفي
يهمس من بين الأجمات، يهمس من بين الأشجار.
آه، كم هو رائع وعامر بالنعمى
ان تحلم وتحس بالرضى.

طويلاً مكثتُ في الألق الخارجي
وما اعتدت مثل هذا الجيشان:
ان أكون في بيتي داخل روحي،
وان لا أرغَمَ على العيش في أي مكان آخر.

لا أبتغي شيئاً، لا أتوق إلى شيء،
أدندن برفق أصوات الطفولة،
وأصل بيتي ذاهلاً

عبر الجمال الدافىء للأحلام.

كم أنت ممزق أيها القلب،
كم أنت سعيد لتحرث بلا تبصر،
لتفكر بلا شيء، لتجهل كل شيء،
سوى أن تتنفس، سوى ان تحس.



الاشجار

لقد كانت الأشجار بالنسبة لي على الدوام الواعظَ الأشد نفاذاً وتأثيراً. اني لأبجلها وهي تعيش في قبائل او مجموعات أسرية، في الغابات والبساتين. ويزداد تبجيلي لها في وقوفها منفردة. إنها أشبه ما تكون بالأشخاص المتوحدين. ولا أقصد النساك الهاربين من ضعفهم، بل العظماء المعتزلين من البشر، أمثال بيتهوفن ونيتشه. في أغصانها الأعلى سموقاً يندفع حفيف العالم، بينا تضرب جذورها في اللانهائي؛ بيد أنها، رافضةً وقوفها العاجز هناك، تناضل بكل ما في حياتها من عزيمة وقوة لبلوغ هدف واحد: ان تحقق ذاتها وفق قانونها، ان تبني شكلها الخاص، ان تعلن عن وجودها. وما ثمة أقدس ولا أجدر بالاقتداء، من شجرة حازت الجمال والقوة. حين تُقطعُ شجرة، وينكشف جرحها المميت للشمس، فان في ميسور المرء ان يقرأ بجلاء تاريخها كله منقوشاً في مقطع جذعها: في الحلقات الدالة على أعوام عمرها، في ندوبها، كل الصراعات

والآلام، كل الأمـراض، كل الهنـاءات والـرخـاءات، منقوشة هناك بأمـانـة ودقـة، سنوات الضيق، وسنـوات البحبوحة، الصمود أمام الهجـمات، والثبـات في وجـه العـواصف وما من صبي في القرية إلا ويعرف ان الخشب الأقسى والأنبل هو ذاك المتميز بحلقاته الأضيق، وان في قُنَن الجبال وحسب، ووسط الأخطار المتلاحقة تنبت الأشجار المثالية، الأشجار الأشد بأساً ومنعة.

الأشجـار معـابـد قدسيـة. من يعـرف كيف يكلمها، من يعرف كيف يصغي إليها، يمكنه تعلم الحقيقة. إنها لا تعظ بالقاء التعاليم والوصايا، ولكنها تبشر، غير معنية بالتفاصيل، بالقانون الأقدم للحياة.

تقـول الشجـرة: النـواة مخبـوءة فيّ، والشرارة، والفكرة، أنا حياة مقبـوسـة من الحيـاة الأبـديـة. فريدة محاولة الأم الأبدية ومغامرتها في صنعي، فريـد شكـل وعـروق جلدي، فريـدة أقـل نأمة تصدر عن أوراق أغصاني، وأصغر ندبة على لحائي. لقد كُوِّنتُ ليتبدى الأبدي في أدق تفاصيلي وأشدها خصوصية.

تقـول الشجـرة: قوتي تكمن في ثقتي. لست أعـرف شيئـاً عن آبـائي، ولا أعـرف شيئـاً عن آلاف الابنـاء الـذين ينبثقـون مني كل عام. إنني أحيـا بالسـر المـودع في بذرتي حتى أبلغ النهـاية، وما من شيء آخر يعنيني. إني أثق بأن الله في داخلي، وأثق بقدسية عملي، وبهذه الثقة ومن خلالها أحيا.

حين تشتد وطأة البلوى علينا، ولا يعود لنا من القدرة ما يجعلنا نحتمل المزيد من الحياة، فإن لدى الشجرة ما تقوله لنا: إهدأوا! إهدأوا! انظروا إليّ! الحياة ليست سهلة، وليست صعبة كذلك. تلك أفكار صبيانية وسخيفة. دعوا الله يلق كلمته فيكم، وستنمو أفكاركم في صمت. إن ما يضنيكم هو ان دروبكم تقودكم بعيداً عن الأم والوطن. ولكن كل خطوة تخطونها وكل يوم يمر عليكم يعود بكم ثانية الى حيث الأم. ليس الوطن هنا ولا هناك، انه في داخلكم، أو لا وجود له البتة.

يمزق قلبي التوق إلى التجوال كلما تناهى إلى سمعي حفيف الأشجار وهي تحتك بالنسائم المسائية. لو ان أحداً أطال الانصات بصمت إليها لتجلى توقه ذاك عن جوهره ومعناه. فهو ليس هروباً مما يقاسيه المرء، على الرغم من أنه يبدو كذلك. بل هو شوق إلى الوطن، وإحياء لذكرى الأم، وبحث عن مجازات جديدة للحياة. إنه توق يقود الوطن. كل الدروب تؤدي الى الوطن، كل خطوة ولادة، كل خطوة موت، وكل قبر أم.

وهكذا تتابع الأشجار حفيفها في المساء، بينما نقف نحن باضطراب أمام أفكارنا الحمقاء. للأشجار أفكار مديدة، ولها نَفَسها الطويل والهادىء، تماما كما ان لها أعماراً. أطول من أعمارنا.انها اكثر حكمة منا، ما دمنا لا نلقي سمعنا إليها. ولكن عندما نتعلم كيف نصغي إلى الأشجار، فان الايجاز والعجلة والطيش الطفولي لأفكارنا

تحرز متعة لا تضاهى. ومن تعلم كيف يصغي الى الأشجار لا يعود يبتغي ان يكــون شجـرة،انـه لا يبتغي إلا أن يكـون ما هو عليـه. ذلكم هو الوطن. تلكم هي السعادة.

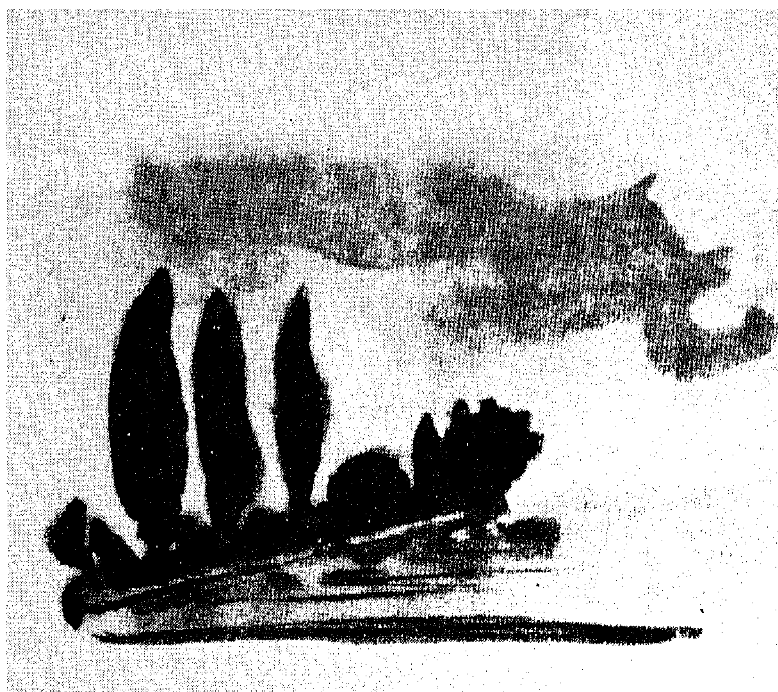
فرح الرسام

الأراضي تنتج الحنطة وتكلف الأموال.
المروج مسيجة بالأسلاك الشائكة،
العوز الشديد والجشع يضطجعان جنباً إلى جنب،
كل الأشياء تبدو يباباً مقفلاً.

بيد أني بعيني أرى ضرباً آخر من الأشياء
يواصل الحياة؛ فالبنفسجي ينحسر مبتعداً
فيما يتهدل الأرجواني على عرشه، وأنا أغني أغنية براءتي.

أصفر بعد أصفر، وأصفر إلى جانب أحمر.
الأزرق الفاتر يتحول الى لون الورد.
الضوء واللون يتقافزان من عالم الى آخر،
يتقوسان ويتصاديان عميقاً في مَوَران الحب.

الروح تتسيد، مبرئة كل العلل،
والخضرة تهزج خارجة من الينابيع حديثة الولادة،
سوف يسهم العالم في خلق النقاء والمعنى،
وستنمو الأفئدة مشرقة مبتهجة.



طقس ماطر

السماء تحاول أن تمطر، فالهواء الرمادي الرخو معلق بقلق فوق البحيرة، وأنا أسير على الشاطىء قرب النزل الذي أقيم فيه.

ثمة طقس ماطر يبعث على الانتعاش والابتهاج. طقس اليوم ليس كذلك. فالرطوبة تسقط وتصعد بلا انتهاء في الهواء الكثيف. والغيوم لاتني تتفتت وتتلاشى. لتحل محلها غيوم جديدة على الدوام. فيما يسود السماء تردد ومزاج سيء.

كنت أحسب ان هذا المساء سيكون اكثر صفاء وامتاعاً لي، تناول العشاء وقضاء الليل في نزل صيادي الأسماك، المشي على الشاطىء، الاستحمام في البحيرة، وربما السباحة تحت ضوء القمر. وبدلاً من كل هذا، سماء داكنة مروعة تطلق بعصبية وابلا نكداً من المطر على البحيرة، وانا أنسلّ مبتعداً، ليس أقل عصبية واعتكار

مزاجي عبر المنظر الطبيعي المتغير. ربما كنت قد أسرفت في احتساء النبيذ ليلة البارحة، أو أنني لم أشرب كفاية، او أنني حلمت بأمور مكربة. يعلم الله ما السبب. المزاج شيطاني، الهواء مترهل مهتاج، أفكاري مكفهرة، وما من ومضة واحدة في العالم.

سأتناول الليلة سمكاً محمراً، واتجرع كمية كبيرة من النبيذ الأحمر المحلي. وعن قريب سنعيد للعالم بعضاً من وميضه المفقود، وسنجد قدرة أكبر على احتمال الحياة. سوف نشعل النار في موقد النزل، حتى لا أكون مضطراً لرؤية أو تحمل هذا المطر الكسول المتراخي. سوف أجلس وأدخن سيجاراً طويلاً من النوع الفاخر، رافعاً كأس نبيذي في مواجهة اللهب، حتى تتلألأ كجوهرة بلون الدم. سوف نتجاهل كل شيء على ما يرام. المساء سوف يمر، وسيكون بإمكاني الهجوع، ففي الغد كل شيء سيتبدل.

في الماء الضحل المتجمع على امتداد الشاطىء، تتساقط حبات المطر ناثرة رشاشاً خفيفاً؛ وفي الأشجار الرطبة تصخب ريح باردة مخضلة، الأشجار التي تلتمع بلون الرصاص كأسماك ميتة. لقد بصق الشيطان في الحساء. لا شيء يبدو مستقراً. لا شيء في وضعه الصحيح. لا شيء يدعو الى البهجة والدفء. كل شيء مقفر، حزين، كريه. كل الأوتار ناشزة عن النغم، وكل الألوان باهتة.

أنا اعرف سبب كل هذا. ليس النبيذ الذي شربته أمس هو السبب، ولا السرير المتيعب الذي نمت عليه، ولا حتى الطقس

الماطر. الشياطين كانت هنا، وشوّشت بزعيقها الحاد انسجام موسيقاي، وتراً بعد وتر. ويعود القلق ليحل من جديد، قلق متحدر من أحلام الطفولة، من قصص الجنيات، مما كان على صبي المدرسة ان يدرسه ويخبره. القلق، الوقوع في شرك الناجز الراسخ، السوداوية، والمقت الشديد. كم هو عديم الطعم هذا العالم! كم هو بغيض ان يتعين على المرء ان ينهض من جديد في الغد، ليأكل من جديد، ويعيش من جديد! إذن، ما الذي يدفع الواحد منا للمضيّ في الحياة؟ لماذا نحن طيبون إلى هذا الحد من البلاهة؟ لماذا لم نلق بأنفسنا في البحيرة منذ زمن بعيد؟

ما من مفر. لا يمكنك ان تكون متشرداً وفناناً وتبقى في الآن نفسه مواطناً متماسكاً، صالحاً، وإنساناً معافى. اذا كنت ستشرب حتى الثمل. فعليك ان تتقبل الصداع الشديد الذي يسببه الثمل. انت تقول أجل، لأشعة الشمس، ولأخيلتك النقية، إذن عليك ان تقول أجل، أيضاً، للقذارة والغثيان. كل الأشياء في داخلك، الذهب والطين، الفرح والألم، ضحك الطفولة ورهاب الموت. تقبلْ كل شيء، ولا تتجنب شيئاً، لا تحاول ان تكذب على نفسك. انت لست مواطناً متماسكاً، انت لست يونانياً، لست متآلفاً، أو سيد نفسك، ما أنت إلا عصفور في عاصفة. دعها تعصف! دعها تستلم زمامك! ما أكثر ما كذبت! آلاف المرات، حتى في قصائدك وكتبك، لقد لعبت دور الانسان المنسجم، الانسان الحكيم، السعيد، الانسان المستنير. وبالطريقة ذاتها، يلعب المهاجمون في الحرب أدوار

الأبطال، فيما تُنتزع أحشاؤهم. ياالهي، يا له من قرد مسكين، من مبارز لخياله في المرآة، هذا الانسان ـ خصوصاً الفنان ـ خصوصاً الشاعر ـ خصوصاً أنا!

سوف أتناول سمكاً محمراً، وأشرب شراب النوسترانو بكأس سميكة، وأدخن ببطء سيجاراً طويلاً، وأبصق في الموقد المتوهج. سأفكر بأمي، وأحاول اعتصار بضع قطرات من الحلاوة، من قلقي وحزني. بعدئذ سوف استلقي على سريري المتعِب قرب الجدار الهزيل، وأصغي الى الريح والمطر، أتصارع مع دقات قلبي، أتمنى الموت، أخشى الموت، وأنادي الله. إلى ان ينتهي كل هذا، وتمحي الشكوك. إلى ان يدعوني شيء أشبه بالنوم والعزاء. كذلك كان الأمر حين كنت في العشرين من عمري، وهكذا هو اليوم، وهكذا سوف يستمر، حتى النهاية. على الدوام، مراراً وتكراراً، سيتوجب عليّ أن أدفع ثمن جمال الحياة وحبي لها، بأيام مثل هذه. على الدوام، مراراً وتكراراً، سوف تأتي أيام وليال مثل هذه، محملة بالقلق والمقت والشك. ولسوف أحافظ على بقائي حياً، وسوف لن أتخلى عن حبي للحياة.

آه، كم بدناءة وحقد تتعلق الغيوم فوق الجبال! كم هو مزيف وفارغ ذلك الضوء المنبسط المنعكس على سطح البحيرة! وكم يبدو أحمق ومضطرباً كل ما يخطر لذهني هذه اللحظة.



الكنيسة

لا بد ان الكنيسة الوردية اللون، بسقفها المائل إلى الأمام، قد بناها رجال طيبون، يتمتعون بأرق المشاعر وأتقاها.

كثيراً ما تردد على مسمعي الرأي القائل بأن الرجال الأتقياء لم يعد لهم وجود البتة، في هذه الأيام. وبالسهولة نفسها يمكن القول ان هذه الأيام خلو من الموسيقى والسماء الزرقاء. إني لعلى يقين من وجود الكثير من الرجال الأتقياء. أنا نفسي رجل تقي. رغم أني لم أكن كذلك دائماً.

وقد تختلف سبل بلوغ التقوى وتتباين اختلاف وتباين البشر. أما فيما يتعلق بي فهي تُبلَغ من طريق الآثام والأحزان، طريق الافراط في تعذيب النفس عبر الحماقات الجديرة باسمها، وأدغالها البدائية. لقد كنت روحاً طَلْقة، وظننت ان التقوى هي اعتلال النفس.

متقشفـاً كنت، فرحت أغـرز أظـافري في لحمي، غير مدرك ان التقوى إنما تعني الرخاء والسكنية.

ان تكون تقياً هو ان تكون مفعماً بالثقة. ولا شيء غير ذلك. الثقة ملك البسطاء الأصحاء المسالمين من البشر، من الأطفال، والمخلوقات الوحشية. أما الذين يفتقرون من بيننا إلى البساطة والنزعة المسالمة فعليهم ان يبحثوا عن الثقة بالطرق الملتوية. أن تملأ نفسك بالثقة، تلك هي البداية. ليس بحسبان الثواب والعقاب، ولا بحسّ الخطيئة والضمير المبَكِّت، ولا بكبح شهوات الجسد والتضحية بها، يكتسب الايمان. فما تلك غير مساع تتودد آلهة تقيم خارجنا. أما الاله الذي ينبغي الايمان به فهو في داخلنا. وذاك الذي يقول لا لنفسه، ليس في وسعه ان يقول نعم لله.

آه يا كنائس هذا البلد الحبيبة الحميمة! انك لتحملين علائم ونقوش إله ليس بإلهي. وان أتباعك المؤمنين ليرتلون صلوات أجهل كلماتها. ومع ذلك يمكنني ان أتلو صلاتي فيك، تماماً كما أتلوها في غابة سنديان أو في مرج جبلي اخضر. صفراء أو بيضاء او وردية اللون تزهرين وسط الاخضرار، كأغنيات ربيع الشباب. وما من صلاة عندك إلا مقبولة ومقدسة.

مقدسة هي الصلاة، مطهِّرة من الخطايا، كأنها الأغنية. وذاك الذي يصلي حقيقة، لا يرجو شيئاً، إنه يعيد عرض حاله ويعدد احتياجاته، مغنياً معاناته وشكرانه، كما يغني صغار الأطفال. هكذا

كان يغني النسـاك المبـاركـون في خلواتهم بين الأيـائل، كما يبدون في رسومات فناء كنيسة بيتزا ـ أروع تصاوير العالم قاطبة. وهكذا تغني الأشجـار، والحيـوانـات كذلـك. في لوحات رسام ماهر، كل شجرة وكل جبل يصلي.

وأياً كان ذلـك القـادم من بيئـة بروتستـانتيـة ورعة، فإن عليه ان يقطع أشواطاً طوالاً في البحث قبل ان يجد صلاة كهذه. إنه ليعرف عذابات الضمير الجهنمية، ويعرف الوخز المميت للتفسخ الجسماني، لقـد خبر كل أنـواع الانقسـام والألم واليأس. ولسـوف يدهشـه فيـما بعد، وهو ماض في دربه، ان يرى كم كان بسيطاً، وطفولياً، وممجداً بالفطرة، ذاك الذي كان يلتمسه بمثل تلك الطرائق الشائكة. غير ان الدروب المغطاة بالأشواك ليست بعديمة القيمة. فالمسافر العائد ليس كمثل الرجل لم يبارح موطنه. إنه أكثر صدقاً ودفئاً حين يحب، وأشـد انعتـاقـاً من تسلط مثنـويـة الاستقـامة والضلال. فالاستقامة فضيلة أولئــك القـابعـين في بيـوتهم، فضيلة عتيقـة، فضيلة البشـر البـدائيـين. أمـا نحن الأكثـر فتـوة، فلا حاجـة لنا بها. نحن نعرف سعادة واحدة لا غير: الحب؛ وفضيلة واحدة فحسب: الثقة.

أمـا أنت أيتهـا الكنـائس، فأحسـد عليك مؤمنيك، وأتباعك. المئـات من المتعبـدين الملقـين إليـك بعـذاباتهم، المئات من الأطفال الضافرين الأكاليل على أبوابك، الموقدين الشموع في جنباتك. أما إيـماننـا، التقـوى التي حظي بها أولئـك الـذين أطالوا الترحال، فهو

إيمان متوحد. والذين ما يزالون يحملون إيماناً قديماً لن يكونوا رفاقاً لنا، وستظل تيارات الحياة تتدفق بعيداً عن جزرنا.

أقطف بعض الـزهـور من المـرج القـريب - زهـرة الـربيـع، والـبرسيم، والأنقـوليـة* وأنسقهـا في الكنيسـة. أجلس على حاجز الشـرفـة تحت السقف المـائـل، وأدنـدن أغنيتي التقيـة في سكينـة الصباح. قبعتي مركونة على الجدار البني، لتأتي فراشة زرقاء وتحط عليها. وبعيداً في الوادي، يصفر قطار صفيراً خافتاً ورقيقاً، وعلى الشجيرات هنا وهناك، ما تزال حبات الندى تتألق.

---

* columbine

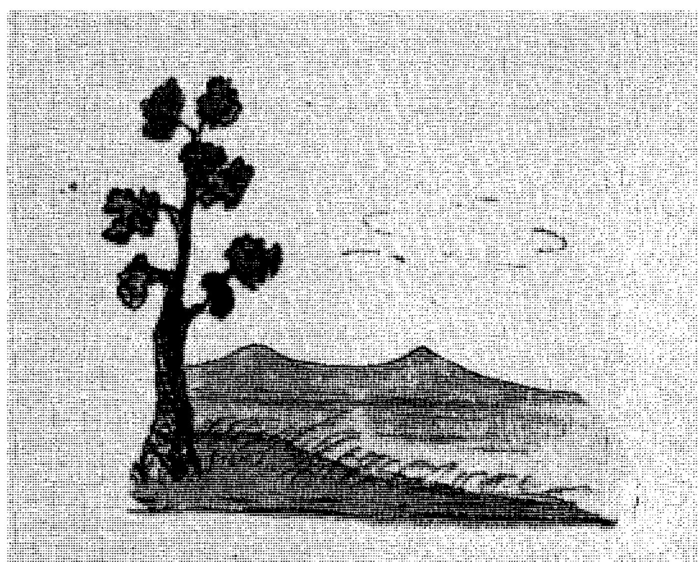
عبـور الأشيــاء

من شجرة الحياة،
تتساقط الأوراق حولي، واحدة إثر أخرى.
إيه، أيها العالم المبتهج بالنشوة،
كيف ملأتني أخيراً،
وجعلتني ثملًا!

أياً كان هذا الذي يتألق اليوم
فسيشمله الخُسران عاجلاً.
ولن تلبث أن تقعقع الرياح
عابرة قبري الذاوي،
فيما تنحني الأم بحنان
على طفلها الوليد.

عيناها هما ما أطمح إلى رؤيته،
نظرتها المومئة نجمتي،
ولكل ما عدا ذلك أن يظهر ويضمحل،
كل شيء يموت، كل شيء ينجز خلاصه.

وحدها الأم الأبدية تبقى،
منها نحن أتينا،
وبإصبعها خطّت أسماءنا
بحبور على الأثير المتلاشي.



إستراحة الظهيرة

مرة اخرى تضحك السماء مشرقة، وتتراقص النسائم غامرة كل شيء. ومن جديد يرجع البلد النائي إليّ، فالغريب عاد إلى موطنه. ذلك المكان عند الشجرة المطلة على البحيرة هو ملكي اليوم؛ لقد وضعت رسماً لكوخ صغير مع بعض البقرات والغيوم، وكتبت رسالة لن أرسلها إلى أحد. أفتح الآن حقيبة غدائي: خبز، نقانق، جوز، شوكولاته.

على مقربة مني تقوم غابة البتولا حيث أرى الأرض وقد غطتها الأغصان اليابسة. أشعر برغبة في إشعال نار صغيرة أتخذ منها رفيقاً مؤنساً أجلس إليه. أنهض واجمع بعض الأحطاب المناسبة، أكومها وأدس تحتها الورق الجاف وأشعلها. يتصاعد خيط الدخان الرفيع، ويتوامض اللهب الأحمر متألقاً بغرابة تحت شمس منتصف النهار.

النقانق لذيذة، سأبتاع المزيد من الصنف نفسه غداً. الله، لو

كان لديّ بعض الكستناء لتحميصها!

بعد الانتهاء من تناول الغداء، أفرش معطفي على العشب، وأريح رأسي عليه، وأجيل بصري فيما حولي، فيما تصاعد خيط الدخان عالياً. ثمة موسيقى هنا، ثمة احتفال تقيمه الطبيعة. أفكر بأغنيات إشيندروف التي أحفظها عن ظهر قلب، ولا يخطر لي غير القليل منها، حتى انني حينئذ لا استطيع استحضار بعض القصائد. آخذ بترديد الأغاني، معتمداً بشكل جزئي على ألحان «هوغو وولف» و «أوتمار سكوك». «من يشتاق إلى جوّال في أراض غريبة»، و «يا حبيبي العود الوفي» كانتا الأحب الى نفسي. إنها أغان مفعمة بالحزن، بيد ان الحزن إنْ هو الا سحابة صيف، تتألق خلفها الشمس والرجاء. ذلك هو إشيندروف، بأغنيات كهذه بذّ «موريك» و «لينو».

لو كانت أمي ما تزال على قيد الحياة الآن، لكنت فكرت بها وحاولت أن أبوح لها بكل شيء، ان اعترف لها بما ينبغي ان تعرفه عني.

وعوضاً عنها، هذه الفتاة الصغيرة ذات الشعر الأسود، في حوالى العاشرة من عمرها، تمر عابرة. تتفحصني وناري الصغيرة، وتقبل مني بعض الجوز والشوكولاته، ثم تجلس إلى جانبي على الشعب، وتشرع بإخباري عن عنزتها وأخيها الأكبر، متحدثة بذلك الوقار وتلك الرزانة التي يتحلى بها الأطفال. يا لنا من مهرجين نحن

الأشخاص الكبارا ثم يتوجب عليها المضيّ إلى المنزل، فقد حملت طعام الغداء لأبيها. تودعني بدماثة وجدّية، وتمضي بصندلها الخشبي وجواربها الصوفية. يدعونها أنانزياتا.

انطفأت النار. وغربت الشمس بوهن. وما تزال لديّ رغبة في السير لمسافة طويلة اليوم. وفيها أبدأ بحزم وربط صرّتي، أستعيد أغنية إشيندروف، وأغنيها راكعاً:

قريباً، آه ما أقرب ما سيأتي الزمن الساكن،
حين أستقر أنا أيضاً، ولموقي
تخشخش الأشجار المتوحدة الرائعة،
ولن يعرفني أحد، حتى هنا.

لقد أدركت، للمرة الأولى، انه حتى في هذا الطريق الحبيب، فإن الحزن ما هو إلا ظل غمامة فحسب. ليس هذا الحزن سوى موسيقى ناعمة لمرور الزمن، وبدونه لن يمسّنا أي شيء جميل. إنه حزن بلا ألم. أحمله معي في رحلتي، وأشعر بالرضا وأنا أخطو برشاقة، مصعّداً في الممر الجبلي، والبحيرة تمتد في البعيد تحتي، مجتازاً جدول الطاحونة، ومراوحها النائمة وأشجار الكستناء حولها، في هذا النهار الأزرق الهادىء.

الجوّال يخاطب المـوت

أنت أيضاً سوف تبلغني ذات يوم،
أنت لن تنساني.
وسينتهي العذاب،
وينكسر القيد.

لكنك مع ذلك تبدو غريباً ونائياً،
يا أخي الموت العزيز.
فها أنت تقف كنجمة باردة
مطلاً على عنائي.

غير أنك ستدنو يوماً
مفعماً باللهب.
أقدِم، أيها الحبيب، فأنا هنا،
خذني، إني لك.



بحيـرة، شجـرة، جبـل

مرة كان ثمــة بحـيرة. فوق البحـيرة الـزرقـاء وفي السماء الزرقاء تسمق شجـرة ربيعيـة خضـراء وصفـراء. تسـترخي السـماء وراءهـا بسكينة على الجبال المقوسة.

جلس الجوال عند أقدام الشجرة. بتلات صفراء تساقطت على كتفيه. كان متعباً وأغمض عينيه. واندفع إليه حلم من الشجرة الصفراء.

كان الجـوال صغـيراً، كان ولـداً، وسمـع أمـه تغني في الحـديقة خلف المنزل. رأى فراشة ترفرف، صفراء ويانعة، صفرة بهيجة في السـماء الـزرقـاء. ركض وراء الفـراشة. ركض قاطعاً المرج، ركض عابراً الجدول، ركض حتى البحيرة. هناك طارت الفراشة فوق الماء الـرقـراق، وطـار الولد وراءها، حوّم ببراعة وسهولة، طار مرحاً عبر الفضـاء الازرق. وسكبت الشمس أشعتهـا على جنـاحيه،طار وراء

الأصفـر وطـار فوق البحـيرة وفوق الجبال الشاهقة، حيث وقف الله على غيمة وغنى. حوله التفّت الملائكة، وبدا أحد الملائكة شبيهاً بأم الـولـد، حامـلاً وعـاء سقـايـة فوق مسكبـة التـوليب ليتسنى لها الشرب. طار الولد الى الملاك، وصار هو نفسه ملاكاً، وعانق أمه.

فرك الجـوال عينيـه، وعـاد فأغمضهـما ثانيـة. قطف زهرة توليب حمراء وعلقها على صدر أمه. قطف زهرة توليب وأناطها بشعرها. المـلائكـة والفـراشـات كانت ترفـرف حوله، وكل الطيور والحيوانات والأسـماك في العـالم كانت هنـاك، وكلما كان ينـاديها بأسمائها، كانت تلبي طائرة وتحط على يد الولدوتستسلم إليه، مرتهنة لملاطفته وتمسيده واستجوابه وإطلاقه من ثم لها.

استيقـظ الجـوال وطفق يفكـر في المـلاك. أصغى إلى حفيف الأوراق النضـرة وهي تتمـوج على الشجـرة، وتنـاهى الى سمعـه صوت الحياة الناعمة الصامتة تصعد وتهبط في دفقات ذهبية داخل الشجـرة. بدا الجبـل قبـالتـه، وهنـاك ثمـة وقف الله بعباءته البنية، يغني. وكـان بالامكـان سماع غنـائه عبر الأمداء الزجاجية للبحيرة. لقد كانت أغنية بسيطة، امتزجت وترجعت مع التدفق الرقيق للقوة داخل الشجرة، ومع التدفق الرقيق للدم في القلب، ومع الفيوض الرقيقة التي انبعثت من الحلم لتجري عبره.

ثم شرع هو نفسـه بالغنـاء، على هَوْن وتـردد. كانت أغنيـة ساذجة، كانت كالهواء وإيقاع الأمواج، كانت همهمة وطنيناً كذلك

الذي يصدره النحل. ولكنها تجاوبت مع أغنية الله في البعيد، ومع أغنية الفيض المتدفق من الشجرة، ومع الأغنية الدوارة في الدم.

لمدة طويلة بقي الجـوال يغني، كعشبة الأجـراس الـزرقـاء وهي تقرع في ريح ربيعية، وكالجراد وهو يطلق موسيقاه بين الأعشاب. لقد غنى قرابة الساعة، او السنة. غنى كطفل وكإله، غنى الفراشةَ وغنى الأمَ، غنى التوليبَ وغنى البحيرة، غنى دمه والدم السائل في الشجرة.

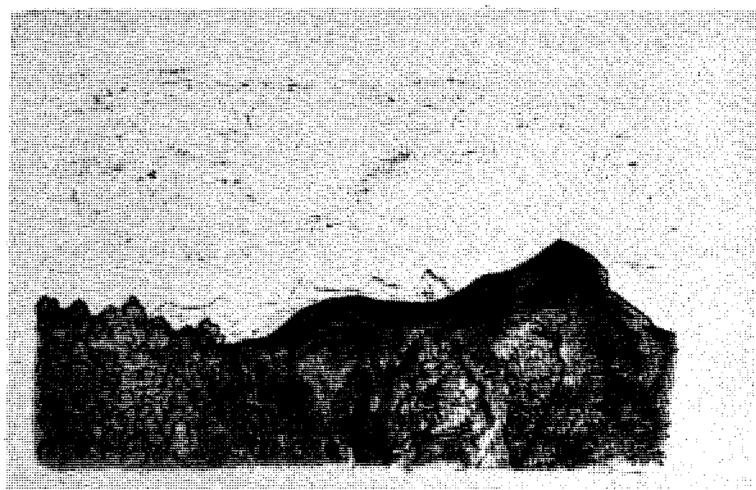
وفيما كان يمضي قدُماً دون ان يشغل فكره بالريف الدافىء، كان دربـه الصحيـح ووجهتـه واسمه تعود تدريجياً إليه من جديد، وفطن إلى ان اليـوم كان الثـلاثـاء، وان ثمـة في البعيـد قطاراً يسرع باتجاه ميـلانـو. ورغم ذلـك فقـد ظل غنـاؤه مسموعاً عن بعد، قادماً من صوب البحيرة. هناك كان الله يقف بعباءته البنية مواصلاً الغناء، غير ان أغنيته كنت تغيب شيئاً فشيئاً عن سمع الجوال.

سحـر الألـوان

أنفاس الله تتردد هنا وهناك،
النعيم في الأعالي، والنعيم على الأرض،
النور يصدح بأغنياته آلاف المرات،
ويصبغ الله هو العالم عبر ألوان لا حصر لها.

من الأبيض إلى الأسود، من الدافىء إلى الفاتر
كلٌّ يحس بأنه رُسم للتو،
وإلى الأبد بعيداً عن الخاووس الدوّار
يرتفع قوس قزح.

وهكذا يتجول نور الله
متجلياً في آلاف الأشكال،
مخلّقاً ومجسّداً في آن.
هو العزيز لَدنيا كالشمس.



سماء غائمة

شجيرات قزمة تنبت بين الصخور. أستلقي وأحدق في سماء المساء، التي ما تزال منذ ساعات تغطي نفسها على هوْن بسحب صغيرة هادئة ومتشابكة. لا بد أن الرياح تعصف في البعيد هناك، على الرغم من صعوبة ملاحظة أثرها هنا. إنها تنسج خيوط الغيم وتغز لها غزلا.

وكما يتبع صعود الرطوبة وهطول المطر على الأرض أحدهما الآخر في اتساق ايقاعي مضبوط، وكتلاحق الفصول، وكما يحدد المدُّ والجزرُ الأوقات والتعاقبات، كِذلك يتحرك كل ما في داخلنا وفق قوانين وإيقاعات. ليس غير البروفيسور فليز من أحصى متواليات عددية معينة لتبيان التكرار الدوري المنتظم وعودة الظهور الحيوي. إن هذا ليبدو كما في القابال*، مع افتراض ان القابال تتضمن المعرفة أيضاً.

* Cabala فلسفة دينية سرية عند أحبار اليهود ونصارى العصر الوسيط، مبنية على تفسير الكتاب المقدس تفسيراً صوفياً.

والحقيقة ان العلماء الألمان الذين سخروا من هذه الفكرة، كانوا أفضل المعرفين بها.

الأمواج المعتمة في حياتي، والتي أخشاها، تنتابني أيضاً باطراد منتظم. لا أعرف التواريخ والأرقام، فلم أعنَ قط بكتابة يوميات متواصلة. لا أعلم ولن أعلم ما إذا كانت الأرقام ٢٣ و٢٧ أو أي رقم آخر له أية علاقة بالأمر. كل ما أعلمه هو: انها من وقت لآخر تنهض في روحي، بدون اي سبب ظاهر، الموجة المعتمة. ويمتد ظل قاتم على العالم، كظل السحابة. فتغدو المتعة مزيفة، والموسيقى مبتذلة. وتشمل الكآبة الأشياء كلها، الموت آنئذ خير من الحياة. وكالنوبة تداهمني هذه السوداوية حيناً بعد حين، دون موعد محدد، وتأخذ شيئاً فشيئاً تحجب سمائي بالغيوم. يبدأ الأمر باضطراب في القلب، مصحوب بهاجس قلق، وربما بأحلام مزعجة أثناء الليل. الناس، المنازل، الألوان، الأصوات، تلك التي من شأنها بعث المسرة في نفسي تغدو مريبة وتظهر لي زائفة. الموسيقى تسبب لي الصداع. وجبات الطعام مقززة ومحشوة بسهام خفية. في أوقات كهذه فإن مجرد الحديث مع الناس هو نوع من التعذيب، سرعان ما يؤدي إلى ثورة غضب. بسبب أوقات كهذه لا يحوز المرء سلاحاً؛ وللسبب ذاته يفتقد المرء السلاح. ينصبّ الغضب والألم والتذمر على كل شيء، على الناس، على الحيوانات، على الطقس، على الله، على الصفحة في الكتاب الذي يقرأه المرء، على نوع الملابس التي يرتديها. بيد ان الغضب ونفاد الصبر والتذمر والبغض

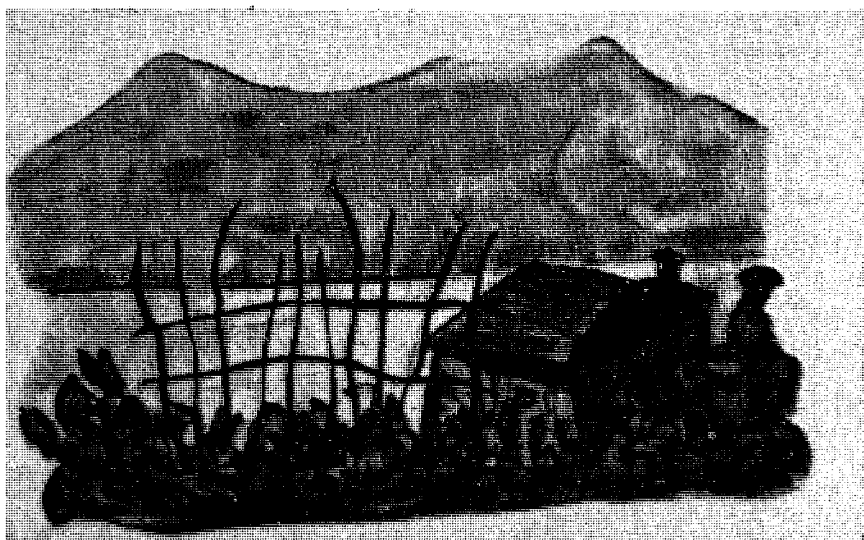
ليس لها من أثـر على الأشيـاء، بل إن الأشيـاء لتـزوغ منهـا، فترتد إليّ. فأنا من يستحق البغضاء. أنا الذي جلب إلى العالم الكراهية والتنافر.

وها أنا استريح بعد يوم كهذا. لقد كنت اعلم طيلة الوقت ان الراحة والانفراج لا بد آتيان. واعلم كم هو جميل هذا العالم؛ وكم يتبدي لعينيّ في هذه اللحظة اكثر جمالاً مما لعيون الآخرين؛ الألوان تمتـزج بنعـومـة اكثـر، النسـائم تهب بغبطة أشد، والنور يرفرف برقة أشهى. وأعلم في الوقت ذاته أنني سأدفع ثمن كل هذه الهناءة بأيام قادمة من عمري، تغدو الحياة فيها لا تطاق.

ثمـة بعض العـلاجـات النـاجعة لدحر الكآبة: الغناء، التدين، شرب النبيـذ، تأليف المـوسيقى، كتـابـة القصـائد، والتجول. واني لأعيش عليهـا جميعـاً كما يعيش النـاسـك على صلواتـه. في بعض الأحـايـين يهيأ لي ان الميـزان قد مال، وان أوقـات هنـاءتي هي من النـدرة والقلة بحيث تعجـز عن التعـويض عن أوقـات تعاستي. ثم أجد في أحايين اخرى، وعلى العكس من ذلك، انني قد احرزت تقدماً، فتزداد أوقات الهناءة وتنقص الأوقات الشريرة. أما الذي ما تمنيته قط، ولا حتى في أشد أحوالي سوءاً، فهو تلك المنطقة المتوسطة بين السعـاد والشقـاء، ذلـك المنتصَف الفاتر الباهت غير المحتمل. لا، إني لأفضـل التطـرف والغلوّ في الانعطـاف ـ العـذاب الممض، العذاب الذي بسببه تشتد لحظات عمري تألقاً ولمعاناً.

يتلاشى اليأس من نفسي، وتعود الحياة آهلة بالمسرة، ويعود الى السماء بهاؤها، والى التجول جدواه. في أيام تعويض كهذه، ينتابني إحساس بالابلال: إعياء لكن دون شجى محدد، استسلام دون مرارة، شعور بالامتنان دون مهانة. وشيئاً فشيئاً يأخذ خط الحياة بالصعود. وأراني أدندن من جديد سطراً من أغنية، وأقطف وردة، وأعاود العبث بعصاي. لقد تغلبت على الكآبة هذه المرة، وسيتوجب عليّ ان أتغلب عليها مرة اخرى، وربما مراراً عديدة.

لسوف يكون من المستحيل ان أحدد ما اذا كانت السماء الغائمة الغامضة المزعجة بسكونها هي التي انعكست في روحي، ام انني كنت أقرأ صورة حياتي الداخلية منعكسة على صفحة السماء. تأتي أحيان تلتبس فيها الأمور تماماً! لقد مضت عليّ أيام كنت أملك فيها القناعة الكاملة بأن ما من بشر على الأرض يمكنه ان يميز أمزجة معينة للهواء والسحاب، ودرجات محددة للألوان، ويفرق بين رائحة وأخرى ويعرف تحركات الرطوبة بالدرجة نفسها من الدقة والصحة التي يمكنني فيها فعل ذلك، بحواسي القديمة المرهفة كشاعر وكجوّال. ثم ما يلبث ان يأتي يوم، كيومي هذا، يملؤني بالارتياب فيما اذا كنت رأيت أو سمعت أو شممت شيئاً على الاطلاق، فيما اذا كان كل ما حسبته حقيقة، ليس سوى صورة مطروحة إلى الخارج، صورة حياتي الباطنية ذاتها.



البيـت الأحمــر

أيهـا البيت الأحمـر، خارج جنينتـك الصغـيرة وكرمك تبعث كل جبـال الألب الجنـوبيـة بأنفـاسهـا إليّ. لقد اجتزتك في طريقي غير مرة، ومنـذ المـرة الأولى كانت شهـوتي للتجـوال تتـذكر بحدة قطبها المقـابـل؛ وهـا أنـا من جديد ألهو بترديد اللازمة القديمة: أن أملك بيتاً، بيتاً صغيراً وسط حديقة غَنّاء، حيث تغمر السكينة كل شيء، وتستقـر القـريـة في الأسفـل. في غرفة متواضعة تواجه الشرق سوف يكون سريري، سريري الخاص، وفي غرفة متواضعة أخرى تواجه الجنـوب، سأضـع طاولتي؛ وهنـاك سأعلق لوحـة المـادونـا القـديمة الصغيرة التي اشتريتها أثناء رحلة سابقة في بريسيا.

وكما يتوسط النهار الصباح والمساء، تتجاذب حياتي الرغبةُ الملحّةُ في السفـر والحنـين الى الاستقـرار. وأحسب ان سيأتي يوم أبلغ فيـه حداً يغـدو معـه الـترحـال وارتيـاد المسافات جزءاً من روحي، إذاك

سأحتفظ بالصور والانطباعات في داخلي غير مضطر الى نقلها أدبياً ووسمها بالواقع. وربما سأجد أيضاً ذلك البيت السرّي في داخلي فأكف عن مغازلة الحدائق والبيوت الصغيرة الحمراء. سأمكث في بيتي مع ذاتي!

كم ستكون الحياة مختلفة! سيكون ثمة مركز، ومن هذا المركز ستنتشر كل القوى.

ولكن ما من مركز لحياتي؛ إن حياتي لتتأرجح بين أقطاب عديدة وأقطاب معاكسة. توق إلى الاقامة من جهة، وتوق الى التجوال من جهة اخرى. رغبة في الوحدة والانعزال هنا، ونزعة إلى الحب والمخالطة هناك. لقد عنيت بجمع الكتب واللوحات الفنية زمناً ثم تخليت عنها. وتعهدت شهواتي الحسية ورذائلي بالرعاية ثم انكرتها وارتدعت عنها في سبيل الزهد والتكفير. لقد بجّلت الحياة بإخلاص على انها جوهر. وأدركت من ثم ان بإمكاني معرفتها وحبها باعتبارها وظيفة فحسب.

بيد أن ما أسعى إليه ليس تغيير ذاتي. فوحدها المعجزة تملك ذلك. وكل من ينشد معجزة، كل من يتعلق بها ويحاول بلوغها، فسيشهد تلاشيها أمام ناظريه. إن ما أسعى إليه هو ان أَقبَضَ في التأرجح الدائم بين عنف المتضادات، وان اكون على أهبة الاستعداد حين تباغتني المعجزة. ان مطمحي هو ان ابقى بغير ما رضا وان املك القدرة على تحمل كل هذا القلق.

أيها البيت الأحمر وسط الاخضرار! لقد عشت ردحاً من الزمن فيك وليس في وسعي مواصلة ذلك العيش. فإن لي بيتي الخاص، منزلي الذي بنيته بنفسي. قست الجدران والسقف، وخططت الممرات في الحديقة، وعلقت صوري على جدراني. كل امرىء مقدور عليه ان يفعل الشيء ذاته ـ وإني لسعيد لأني عشت حيناً بهذه الطريقة.لقد تحقق الكثير من رغباتي في الحياة. أردت أن أصبح شاعراً واصبحت شاعراً. أردت ان أملك منزلاً، وقد شيدت واحداً. أردت ان يكون لي زوجة وأطفال، وكان لي ذلك. أردت ان اخاطب الناس وأؤثر فيهم، وقد فعلت. وكل تحقق لرغبة سرعان ما كان يتحول إلى تخمة. لكن الشعور بالرضا والقناعة هو ما لم استطع احتماله قط. فآخذ في الارتياب بقيمة ما أكتب من شعر، ويبدو لي المنزل وهو يزداد ضيقاً. ما من هدف بلغته كان هدفاً.كل درب اتخذته كان انعطافاً، وكل راحة كانت تلد توقاً جديداً.

سأظل أتبع الكثير من المنعطفات، وستظل الانجازات المحققة تعتقني من الأوهام. وسيأتي يوم يكشف فيه كل شيء عن معناه.

هناك، حيث تضمحل التناقضات جميعاً، فثمة النيرفانا. وفي داخلي ما تزال تتوقد متألقة نجوم التوق الحبيبة.

أمسيات

في الأماسي يتمشى العشاق
بتؤدة عبر الحقول،
وتفرد النسوة شعورهن،
ويحصي رجال الأعمال أموالهم،
ويطالع سكان المدن بقلق
آخر الأخبار في جريدة المساء،
ويشد الأطفال قبضاتهم الصغيرة
نائمين عميقاً في الظلام.
كل امرىء مع حقيقته،
يتبع واجباً نبيلا،
سكان المدن، الأطفال الرضع، العشاق ـ

ولست كذلك؟

بلى! ان مسائي أيضاً ليفرض عليّ واجباً،
يتعذر انجازه بغير روح العصر،
تجاه الأشياء التي تستعبدني،
والتي لا تخلو أيضاً من معنى.
وهكذا أرتفع وأهوي،
راقصاً في داخلي،
مهمهماً بأغنيات سوقية بلهاء،
أمجدّ الله ونفسي،
أشرب الخمر وأزعم
أني باشا،
أقلق على كليتيّ،
أبتسم، وأشرب المزيد،
ملبياً رغبات قلبي
(في الصباح لا يجدي هذا)،
بنسج القصائد هازلاً
بعد انقضاء المعاناة،
أحدق إلى دوران القمر والنجوم،
مخمناً وجهاتها،
شاعراً أني واحد بينها
يمضي في رحلة
ما همّ إلى أين.







هرمان هيسه

تجوال

«.. ما من مركز لحياتي؛ إنّ حياتي لتتأرجح بين أقطاب عديدة، وأقطاب متعاكسة. توق إلى الإقامة من جهة، وتوق إلى التجوال من جهة أخرى. رغبة في الوحدة والإنعزال هنا ونزعة إلى الحب والمخالطة هناك..»

«بيد أن ما أسعى إليه ليس تغيير ذاتي، فوحدها المعجزة تملك ذلك. وكل من ينشد معجزة، كل من يتعلّق بها ويحاول بلوغها فسيشهد تلاشيها أمام ناظريه. إن ما أسعى إليه هو أن أُقبض في التأرجح الدائم بين عنف المتضادات، وأن أكون على أهبة الإستعداد حين تباغتني المعجزة. إن مطمحي هو أن أبقى بغير ما رضا، وأن أملك القدرة على تحمّل كل هذا القلق».

هرمان هيسه



للنشر والتوزيع

تلفاكس : ٥٥٢٢٥٤٤ ● ص. ب: ٩٥٠٢٥٢ ، عمّان ١١١٩٥ الأردن

ISBN 9957-09-014-3 (ردمك)